الفصل الثالث
الوقائع والأفكار الاقتصادية
في عهد بقية العصور

الفصل الثالث

الأفكار والوقائع الاقتصادية في بقية العصور

تقديم:

بعد دراسة الوقائع والأفكار الاقتصادية في العهد الراشد ومن قبله عهد الرسول(ص)، واستكمالا لعناصر الموضوع المعني بالبحث، نتناول في هذا الجزء الأفكار والوقائع الاقتصادية في العهد الأموي، عهد عمر بن عبد العزيز كنموذج، وعليه سنتجاوز عهد خلفاء بني أمية السابقين لعهد عمر بن عبد العزيز.

وقد تسلسلت في عرض الأفكار والوقائع الاقتصادية له، وقبلها كيف آلت الخلافة إليه، ولم يكن راغبا فيها، اخترت ماله صلة من هذه الأفكار والوقائع بسياسته المالية، خاصة تلك الإجراءات الإصلاحية التي اقترنت بالإصلاح الاقتصادي العام.

وتتبعت هذه الأفكار سواء كانت مرتبطة بالنفقات والإيرادات العامة للدولة الإسلامية، أو كانت تتعلق بترشيد عمالة الدولة وقيام إدارة الاقتصاد على مبدأ المفاضلة والقدرة الحسنة التي بدأها رئيس الدولة بنفسه، فزهد وعائلته في الأموال العامة، ودقق في اختيار مستشاريه وعين ولاته وعماله على أساس الكفاءة المطلقة، وألبس نشاط الدولة الاقتصادي رداء التقوى فاقتدى فيها بالرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين من بعده، حيث صحح انحراف خلفاء بن أمية قبله فأقام الشورى الصحيحة وأحاطها بالعدل وقادها بالرفق والتيسير على الرعية، فحققت السياسة الاقتصادية في عهده فيض الأموال، وكفلت غنى

الشعب وكفاية الفقير، وإعزاز المسكين، في ظل نظام عادل وشامل للعطاء، حيث قام برد المظالم والحقوق المغتصبة إلى أهلها، وبذلك تحقق الازدهار وشاع الأمن والاستقرار في عهده، هذا وقد تتبعت الوقائع والأفكار الاقتصادية بعد وفاته لتبيان أن بعض الخلفاء في بني أمية بعده قد حادوا عن السياسة الاقتصادية الرشيدة المتبناة في عهده، فعادت التجاوزات والمخالفات التي ساهمت في نهاية الحكم الأموي.

ولما كانت سياسة الإصلاح الاقتصادي والمالي التي وضعها عمر غنية بالوقائع والأفكار الاقتصادية ترى أنها جديرة بأن تتخذ كنموذج يهتدي به في العصور الحديثة لإنجاح الإصلاحات الاقتصادية وتقليص العجوز المالية للدولة الإسلامية اليوم.

وفي ضوء ما سبق حوى هذا الجزء من البحث على مباحث وزعت حسب التسلسل التاريخي للوقائع والأفكار الاقتصادية من ناحية، وحسب أهمية الواقعة والفكرة الاقتصادية من ناحية أخرى.

1 ـ المبحث الأول : مخالفات مالية واقتصادية في عهد بني أمية قبل عهد عمر بن عبد العزيز.

2 ـ المبحث الثاني : خلافة عمر بن عبد العزيز وسياسته المالية والاقتصادية.

3 ـ المبحث الثالث : الوقائع والأفكار الاقتصادية عند عمر بن عبد العزيز.

4 ـ المبحث الرابع : انتكاس السياسة الاقتصادية لعمر بن عبد العزيز بعد وفاته.

خاتمة الموضوع.

المبحث الأول

مخالفات مالية واقتصادية في عهد بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز

من المعروف أن تولي سدة الحكم في الدولة الإسلامية في العهد الأموي، قبل حكم عمر بن عبد العزيز، تناوب عليه مجموعة من الخلفاء هم:

1 ـ معاوية بن أبي سفيان (40 ـ 60) هجرية.

2 ـ يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (60 ـ 64) هجرية.

3 ـ معاوية بن يزيد بن معاوية (64) هجرية.

4 ـ مروان بن الحكم (64 ـ 65) هجرية.

5 ـ عبد الملك بن مروان (65 ـ 86) هجرية.

6 ـ الوليد بن عبد الملك (86 ـ 96) هجرية.

7 ـ سليمان بن عبد الملك (96 ـ 99) هجرية.

وقد هبط في عهدهم مستوى الأداء الاقتصادي خاصة المالية العامة، فلم تعد تتحرك الآلة الاقتصادية بهدى القرآن الكريم، وسنة رسول الله(ص)، ونهج الخلفاء الراشدين من بعده، بل مالت ضوابط الأفكار الاقتصادية ووقائعها عن الانضباط الإسلامي، ووقعت التجاوزات والمخالفات.

وقد أرجع كتاب الفكر الإسلامي ذلك إلى عدة أسباب اعترت الحكم الإسلامي يمكن إجمالها في التالي:

أسباب وقوع هذه المخالفات والتجاوزات:

1 ـ ومن أسباب وقوع التجاوزات الاقتصادية والمالية على الخصوص في العهد الأموي قبل حكم عمر بن عبد العزيز، أن الإمارة لم تعد في الحقيقة بالبيعة، وإنما أصبحت ملكا يتوارثه الأبناء عن الآباء وأن الرعية قد انقسمت بين مؤيدين لبني أمية ومناصرين لبني هاشم وأثر ذلك على الحياة الاقتصادية للأمة.

2 ـ والحروب التي قامت بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، حيث قام الأمراء الأمويون باضطهاد من يشايعون بني هاشم وحرموهم بعض حقوقهم من الأموال العامة.

3 ـ كما أن بعض أمراء بني أمية انغمسوا في ملاذ الدنيا وترفها ولم يفرقوا بين ماليتهم الخاصة والأموال العامة فنالوا ما يشاءون فجانبوا حالة الزهد والتقشف التي كان عليهما الرسول.

4 ـ كما امتدت التجاوزات إلى طريقة اختيار الولاة وعمال الدولة ومنهم الخراج، وغير ذلك من الموارد الاقتصادية، فلم تعد معايير اختيارهم هي الكفاءة والتقوى. وإنما قام الاختيار في كثير من الحالات على معايير أخرى منها الولاء للعهد الأموي، وصلة القربى بالحكام.

هذه الأسباب وغيرها ساهمت في وقوع التجاوزات والمخالفات في الوقائع والأفكار الاقتصادية سنذكر نماذج منها.

فيما يلي نماذج من مخالفات وتجاوزات في المجال الاقتصادي وقعت في العهد الأموي قبل عهد عمر بن عبد العزيز.

وهي:

- تجاوزات في الإيرادات المالية العامة.
- تجاوزات في النفقات المالية العامة.
- مخالفات إدارة المالية العامة وعلى الأخص عمالة الدولة.
- مخالفات عطاء بيت المال.

إلا أن سرد هذه المخالفات بالتفصيل قد ينحو بالبحث منحى آخر لهذه سوف نركز على ذكر بعض حالات المخالفة والتجاوز للدلالة على مخالفة وتجاوز الواقعة والفكرة الاقتصادية في العهد الأموي قبل عهد بن عبد العزيز عن عهد الرسول(ص)وعهد الخلفاء الراشدين من ذلك.

- قتل من تزكى:

جاء رجل إلى سمرة بن جندب وكان واليا على البصرة بعد زياد في عهد معاوية وأدى الزكاة لماله، فجعل يصلي في المسجد فجاء رجل فضرب عنقه فإذا رأسه في ناحية وبدنه في ناحية أخرى فمر أحدهم فقال: يقول سبحانه وتعالى : [**قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى**](سورة الأعلى/ 14 - 15).

ويقول من شاهد ذلك : فما مات سمرة حتى أخذ الزمهرير فمات شر ميتة [1].

- غلول في الغنائم وخمسها :

كتب زياد والي معاوية إلى الحكم بن عمر وبعد انتصاره في غزوة جبل الأشل وحصوله على مغانم كثيرة، "إن أمير المؤمنين كتب إلي أن أصطفي له صفراء وبيضاء والروائع فلا تحركن شيئا حتى

تخرج ذلك"، فكتب إليه الحكم "أما بعد فإن كتابك ورد، تذكر أن أمير المؤمنين كتب إلي أن أصطفي له كل صفراء وبيضاء والروائع ولا تحركن شيئا، فإن كتاب الله عز وجل قبل كتاب أمير المؤمنين، وأنه والله لو كانت السماوات والأرض رتقا على عبد اتقى الله عز وجل، جعل الله سبحانه وتعالى له مخرجا".

وقال للناس "اغدوا على غنائمكم" فغدا الناس، وقد عزل الخمس، فقسم بينهم تلك الغنائم فهدده زياد، فقال الحكم : اللهم إن كان لي عندك خير فاقبض، فمات بخراسان بمرو[2].

ولما افتتحت الأندلس في عهد الوليد بن عبد الملك أصاب الناس فيها غنائم فغلوا فيها غلوا كثيرا حملوه في المراكب وركبوا فيها، فلما وسطوا البحر سمعوا مناديا يقول : اللهم غرق بهم، فرعوا الله وحملوا المصاحف، فما نشبوا أن أصابتهم ريح عاصف وضربن المراكب بعضها ببعض حتى تكسرت وغرقت بهم[3].

ـ إهدار أساس في الجزية :

يقضي القرآن الكريم بأن الجزية على من لم يسلم من أهل الكتاب، ويقول رسول الله(ص): "ليس على مسلم جزية".

ومع ذلك كان الحجاج بن يوسف الثقفي في عهد عبد الملك بن مروان والوليد أول من أبقى الجزية على من أسلم، فقد لاحظ أن عددًا كبيرا من أهل الذمة قد اعتنق الإسلام، وأن إسقاط الجزية يؤثر على حصيلتها فآثر بقاء الجزية دون الالتزام بالقرآن والسنة[4].

ويفسر أبو عبيد الحديث السابق للرسول(ص)فيقول: "إن تأويل هذا الحديث أن رجلا لو أسلم في آخر السنة وقد وجبت عليه الجزية أن إسلامه يسقطها عنه فلا تؤخذ منه وإن كانت قد لزمته قبل ذلك، لأن المسلم لا يؤدي الجزية ولا تكون دينا عليه كما لا تؤخذ منه فيما يستأنف بعد الإسلام[5].

ـ خراج فوق الطاقة وحصيلة محرمة من عشور التجارة:

كتب سليمان بن عبد الملك إلى أسامة بن زيد التنوخي متولي خراج مصر متعسفا في جباية الخراج "احلب الدر حتى ينقطع، فإذا ما انقطع فاحلب الدم حتى ينصرم"[6].

كما كانت تؤخذ العشور في التجارة على الخمور[7] مع أنها محرمة وأن الله إذا حرم شيئا حرم ثمنه.

ـ استيلاء الولاة على حصيلة الإيرادات العامة :

شهدت الدولة الأموية نماذج من تجاوز أقرّاء بني أمية بغير حق لولاة على ما جمعوه من أموال عامة، والاكتفاء بعزلهم بعد التجاوز واستغلال السلطة، وأهملت مبدأ محاسبة الولاة وعمال الدولة على ما جمعوه من أموال عامة.

وهذا إبطال واستخفاف بواقعة وفكرة حرمة المال العام من جهة، وينمي ظاهرة الإسراف والاستلاء عليه ويرجح إيثار المنافع الخاصة على النفع العام، هذا التغاضي عن محاسبة الولاة مثلا:

ـ أراد معاوية بن أبي سفيان أن يعزل عبد الله بن عامر عن البصرة سنة 44 هجرية فقال له: "اختر بين أن أتتبع أثرك وأحاسبك بما صار إليك وأردك إلى عملك وبين أن أسوغك ما أصبت وتعتزل"، فاختر أن يسوغه ما أصابه من ولايته ويعزل[8].

ـ في سنة إحدى وأربعين كان زياد بفارس فكتب معاوية إلى زياد: "إن في يدك مالا من مال الله وقد وليت ولايته فأد ما عليك من المال".

فكتب إليه زياد:

"إنه لم يبق عندي شيء من المال، وقد صرفت ما كان عندي في وجهه واستودعت بعضه لنازلة إن نزلت".

فكتب إليه معاوية:

"أن أقبل إلي ننظر فيما وليت وجرى على يدك فإن استقام بيننا أمر فهو ذاك وإلا رجعت إلى مأمنك". فلم يأبه زياد[9].

قدم عبد الرحمن بن زياد حاكم خراسان على يزيد بن معاوية فقال له يزيد: كم قدمت به معك من المال من خراسان قال: عشرين ألف درهم فقال يزيد: إن شئت حاسبتك وقبضناها منك ورددناك على عملك. وإن شئت سوغناك وعزلناك، وتعطى عبد الله بن جعفر خمسمائة ألف ألف درهم.

قال: بل تسوغني ما قلت ويستعمل عليها غيري، وبعث عبد الرحمن بن زياد إلى عبد الله بن جعفر بألف ألف درهم وقال: خمسمائة ألف من قبل أمير المؤمنين وخمسمائة ألف من قبلي[10].

حدث هذا في عهد بني أمية بينما كان عمر بن الخطاب يحاسب الولاة على الزيادات التي طرأت على أموالهم الخاصة ويقاسمهم إياها ويوردها بيت المال.

ـ نفقات عامة على مظهرية الحكم :

كان الخليفة من الراشدين يلبس الثوب من الكراباس[11] الغليظ وفي رجليه نعلان من ليف ويمشي في الأسواق كبعض الرعية دون حراس أو مظهر من مظاهر السلطان، غير أن الدولة الأموية بعدهم استحدثت تقاليد عديدة ومميزات تميز بها السلطان، وأنفق من بيت المال على تمويل تلك التقاليد والمميزات.

وكان معاوية أول من سن ذلك، فبنى قصرا سماه الخضراء واتخذ فيه السرير للجلوس (ما يعرف اليوم بكرسي العرش)، ثم وضع حول هذا السرير الستائر، كما أحاط بنفسه بالحجاب والحراس، وأوجد الشرطة لحراسته، واتخذ القصورة في المسجد وأصبح يصلي فيها منفردا من الناس، فإذا سجد قام الحرس رافعين السيوف.

وقد ظهرت آية الملك في عهد عبد الملك بن مروان، إذ تشبه بملوك الفرس وقياصرة الروم فكان يجلس على عرشه وعلى يمينه الأمراء وعلى يساره رجال الدولة ورجال البلاط ثم يقف أمامه من يريد

المثول بين يديه من رسل الملوك والشعراء والكتاب والفقهاء وغيرهم وصار كما وصفه أحد المؤرخين المسلمين وهو البلاذري "أول من تجبر من الخلفاء".

وامتدت هذه التقاليد والبدع الجديدة إلى ولاة بني أمية وعمالهم فقد عين معاوية مثلا: زياد بن أبيه على البصرة ثم أضاف إليه الكوفة حتى صار أميرًا على العراق كله، فاتخذ زياد له حرسا خاصا مُدرَّبا قوامه أربعة آلاف رجل، كانوا له العيون والإرصاد، كما كان منهم الشرطة لحفظ النظام، وكان نفر من هذا الحرس يسير أمام موكب زياد يفسح له الطريق أشبه بأكاسرة الفرس(12).

ـ نفقات عامة لإسكات المعارضة :

بعد عصر الخلفاء الراشدين اتخذت حركة الإنفاق العام مسارات جديدة بهدف تثبيت سلطان الحكم وكف المعارضة عنهم وتبين ذلك من النماذج التالية:

ـ لما قُتل علي بن أبي طالب كان على رأس جيش العراق قيس بن سعد، فاستخلف أهل العراق الحسن بن علي الخلافة، ثم خرج بالناس حتى نزل بالمدائن، وبعث قيس بن سعد على مقدمة جيشه في اثني عشر ألفا، وأقبل معاوية في أهل الشام حتى نزل مسكن، فبينما الحسن في المدائن إذ نادى مناد في العسكر: ألا إن قيس بن سعد قد قتل فانفرو فنفروا ونهبوا سرادق الحسن، حتى نازعوه بساطا كان تحته، فلما رأى الحسن تفرُّق الناس عنه قام في أهل العراق فقال: يا أهل العراق إنه سخي بنفسه عنكم ثلاث: قتلكم أبي، طعنكم أياي، نهبكم متاعي.

وبعث الحسن إلى معاوية يطلب الصلح فأرسل له رسولان فصالحاه على أن يأخذ من بين الكوفة خمسة آلاف ألف[13].

ـ ولم تكن الأموال العامة تعطى للمعارضين فقط بل كانت تعطى لأقارب الحكم، فقد طلب هبيرة السكوني من معاوية أن يعفوا عن ابن عمه حجر بن عدى الذي كان يناوئ حكم معاوية ولكن معاوية قتله، وأرسل معاوية إلى ابن عمه يطلبه ليسترضيه ولكنه لم يأتي معاوية، فلما كان الليل بعث معاوية إليه بمائة ألف درهم وقال له:

"إن أمير المؤمنين لم يمنعه أن يشفعك في ابن عمك إلا شفقة عليك وعلى أصحابك أن يعيدوا لكم حربا أخرى، وأن حجر ابن عدي لو قد بقي خشيت أن يكلفك وأصحابك الشخوص إليه، وأن يكون ذلك من البلاء على المسلمين ماهو أعظم من قتل حجر".

فقبلها مالك بن هبيرة وطابت نفسه وأقبل إلى معاوية من غده فى جموع قومه حتى دخل عليه ورضي عنه[14].

إنفاق بعض المال العام على قتال المسلمين :

فجر النزاع بين علي ومعاوية، وأيلوله الحكم لمعاوية خلافات في الرأي بين الدولة وبعض طوائف الأمة، وأدت تلك الخلافات إلى منازعات استخدمت فيها الدولة الأموية جند الإسلام والسلاح والعتاد والمال من بين مال المسلمين لقتال بعض المسلمين بدلا من توجيهه للخدمة العامة لصالح المسلمين.

مخالفات في عطاء بيت المال :

إن العطاء في عهد الخلفاء الراشدين مرتبطا بعدالة الإسلام فاتسم بالحق والعدل والشمول، غير أن عهد معاوية اتجه العطاء فيه اتجاها سياسيا، فارتبط منحه في بعض الحالات بتأبيد شخص الخليفة وتدعيم سلطاته مثلا في ذلك:

كان زياد في عهد معاوية بن أبي سفيان على المنبر فقال مهددا أهل البصرة بقطع العطاء عنهم إذا لم يكفوه بعض الخارجين على الولاء لمعاوية وله "يا أهل البصرة والله لتكفن هؤلاء أو لأبدأن بكم، والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهما" فثار الناس فقتلوهـــم(15).

ينوه الفرزدق عن مخالفات العطاء، وقد كان معارضا لزياد في عهد معاوية وكان إذا نزل زياد البصرة نزل الفرزدق الكوفة وإذا نزل زياد الكوفة نزل الفرزدق البصرة، فتوسط الناس لدى زياد فقال لهم: "لو لأمنته وأعطيته".

فبلغ ذلك الفرزدق فرفض في قصيدة طويلة منها هذه الأبيات:

دعاني زياد للعطاء ولم أكن لآتيه ما ساق ذو حسب وفـــرًا
وعند زياد لو يريد عطاءهم رجال كثير قديري بهم فقـــرًا
قعود لدى الأبواب طلاب حاجة غوان من الحاجات أو حاجه بكرًا

وفر الفرزدق إلى المدينة حتى هلك زياد.(16)

مظالم في المال الخاص :

إذا كان أمراء بني أمية قد ارتكبوا المخالفات السابقة في المال العام، فقد وقعت بعض المخالفات والمظالم على المال الخاص وهي كثيرة، من ذلك ما رواه الطبري:

ـ تعدي سليمان بن عبد الملك في الحدود عند البحث عن حق رجل، فقد كان عمر بن عبد العزيز عنده ذات يوم وعنده ابن سليمان وهو يومئذ ولي عهده، وجاء رجل يطلب ميراثا من بعض نساء الخليفة.

فقال سليمان : ما أخال النساء يرثن في العقار شيئا.

فقال عمر : سبحان الله وأين كتاب الله.

فنادى سليمان بغلام وقال له : اذهب فأتى بسجل عبد الملك بن مروان الذي كتب فيه ذلك.

فقال عمر : لكأنك أرسلت إلى مصحف.

فغضب أيوب بن سليمان.

وقال لعمر: والله ليوشكن الرجل أن يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين فلا يشعر حتى يفارقه رأسه.

فقال عمر: إذا أفضى الأمر إليك وإلى أمثالك كان ما يدخل على الإسلام أشد مما يخشى عليكم من هذا القول.[17]

مقارنة بين الوقائع والأفكار الاقتصادية
في العهد الراشد والعهد الأموي

في ضوء ما سبق يمكن المقارنة بين الوقائع والأفكار الاقتصادية في عهد الخلفاء الراشدين وعهد الأمويين قبل عهد عمر بن عبد العزيز على النحو التالي:

اتفق العهدان بصفة عامة على تطبيق واستمرار الوقائع والأفكار الاقتصادية المتمثلة في الزكاة، وخمس الغنائم، والخراج، والجزية، وعشور التجارة، إلا أن بنوا أمية فرضوا نوعا من الرسوم والضرائب لم تكن موجودة في عهد الخلفاء الراشدين نوضحها لاحقا.

تم تطبيق الوقائع والأفكار الاقتصادية في عهد الخلفاء الراشدين بالتزام أحكام القرآن والسنة النبوية، بينما حدث في عهد بني أمية تجاوزات ومخالفات في التطبيق مثلا:

أ ـ حاد الإنفاق العام في عهد بني أمية عن الترشيد التام والكامل في عهد الخلفاء الراشدين، كما أشرنا سابقا.

ب ـ كان تعيين الولاة والعمال في عهد الخلفاء الراشدين يتم بصفة عامة على أساس الأصلح والأكفأ، بينما كان في عهد بني أمية في بعض الحالات وهي كثيرة على أساس القرابة، والمجاملة، وعلى أساس الولاء.

ج ـ التزمت الإدارة المالية لبيت المال، لكل حصة في بيت المال من عطاء، لكن في عهد بني أمية استخدم العطاء كسلاح لتحقيق السياسة وحفظ دوام الحكم فأغدق على المؤيدين وحرم المعارضون.

د ـ ترتب على هذه المظالم الاقتصادية والمالية في عهد بني أمية وقوع مظالم وجور وتعدي على الناس، لم يكن ذلك يحدث في عهد الخلفاء الراشدين.

ـ امتدت المخالفات الاقتصادية والمالية حتى عهد الخليفة سليمان الأموي، سليمان ابن عبد الملك حتى سنة 99 هجرية.[18]

وبذلك آن أوان نبوءة الرسول(ص)بالإصلاح طبقا لحديثه الذي رواه أحمد بن جنبل وهو "إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلا يقيم لها أمر دينها".[19]

وسنرى في المباحث التالية أن الله عز وجل بعث للأمة الإسلامية عمر بن عبد العزيز ليقيم لها أمر دينها في جميع مناحي الحياة ومنها الوقائع الاقتصادية.

المبحث الثاني
خلافة عمر بن عبد العزيز وسياسته
المالية و الاقتصادية

نبذة عن عمر بن عبد العزيز :

رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ذات ليلة رؤيا نهض فيها من نومه يعجب ويقول:

"من هذا الذي من ولد عمر يسمى عمر يسير بسيرة عمر" وكان يقول أيضا : رضي الله عنهما عن أبيه تلك النبؤة، فكان يقول: "ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر بن الخطاب في وجهه علامة يملأ الأرض عدلا".

وبدأت أولى حلقات نبوءة عمر بن الخطاب تتحقق في حياته فقد خرج ذات ليلة كعادته يتفقد أحوال الرعية في مدينة الرسول(ص)، فترامى إلى أذنه حديثا جرى بين أم وابنتها وتسرب من أحد المنازل وكان كالتالي:

الأم : ألا تمذقين (أي تخلطين) اللبن بالماء.

البنت : كيف أمذق اللبن يا أماه وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق؟

الأم : قد مذق الناس فامذقي، فما يدري أمير المؤمنين وهو لا يرانا.

البنت : إن كان لا يعلم ولا يرانا فالله يعلم وهو يرانا، ما كنت أفعله وقد نهى عنه.

تملك عمر بن الخطاب الإعجاب بصلاح البنت وخشيتها من الله جل وعلا، فلما أصبح الصباح تحرى عنها فإذا هي من بني هلال، فنادى ابنه عاصم وقال له : اذهب يا بني تزوجها فما أحراها أن تأتي بفارس يسود العرب.

أطاع عاصم أباه وتزوج الفتاة فولدت له ليلى المعروفة "بأم عاصم"، وتزوجها فيما بعد أمير من أمراء العرب عبد العزيز بن مروان بن الحكم فأنجبت ولدًا أسمته باسم جدها عمر فكان عمر بن عبد العزيز بن مروان ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف.

وأمه :

أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

مولده :

كان مولده في سنة إحدى وستين هجرية وهي السنة التي قتل فيها الحسين بن علي، وفي طفولته رمحته دابة في وجهه وهو بدمشق فأتت أمه وضمته إليها وجعلت تمسح الدم عن وجهه وهي تبكي.

ودخل عليها أبوه فلامته لتركه الولد دون رعاية، وتركت الحادثة شجا في وجه عمر بن عبد العزيز، فقال أبوه لأمه فطوباك إذا كان عمر أشج بني أمية، فسيلي خلافة المسلمين والإسلام.

وبدأت إرهاصات خلافة الطفل تتوالى، فلما شب وبينما كان يتلقى العلم على يد أحد الشيوخ سأله عن سبب الشج في وجهه فشرح له قصة ذلك، فقال الشيخ إذن أنت أشبح بني أمية؟ سنلي يا بني الخلافة يوما فتملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما.

وحدث الخزاعي عن عمر بن عبد العزيز أنه رأى رسول الله(ص)في روضة خضراء فقال له: إنك ستلي أمر أمتي لفزع[20] عن الدم فإن اسمك في الناس عمر بن عبد العزيز واسمك عند الله جابر.[21]

ويروي أبو بكر بن أبي الدنيا رواية أخرى عن عمر بن عبد العزيز :

يقول : أدن يا عمر

فدنوت حتى خشيت أن أصيبه

فقال: إذا وليت فاعمل نحوا من عمل هذين

فإذا كهلان قد اكتنفاه

فقلت: ومن هذان

فقال: هذا أبو بكر وهذا عمر[22].

خلافة عمر بن عبد العزيز:

وصى وزير سليمان بن عبد الملك رجاء بن حيوة [22] وكان من علماء التابعين وفضلائهم، قصة خلافة عمر بن عبد العزيز فقال: لما كان يوم الجمعة لبس سليمان بن عبد الملك ثيابا خضراء من خز، ونظر في المرآة.

فقال: أنا والله الملك الشاب

فخرج إلى الصلاة فصلى بالناس الجمعة فلم يرجع حتى وعك فلما ثقل (أي اشتد مرضه) عهد في كتبه لبعض بنيه وهو غلام ولم يبلغ، فقلت: ما تصنع يا أمير المؤمنين!، إنه مما يحفظ الخليفة في قبره أن يستخلف على المسلمين الرجل الصالح.

فقال سليمان : أنا أستخير الله وأنظر فيه.

فمكث يوما أو يومين دعاني.

فقال: ما ترى في داود بن سليمان

فقلت: هو غائب عنك بقسنطنطينية، وأنت لا تدري أهو حي أم ميت

فقال لي: فمن نرى

قلت: رأيك يا أمير المؤمنين وكنت أريد أن أنظر من يذكر

فقال: كيف ترى عمر عبد العزيز.

فقلت: أعلمه والله خيرا فاضلا مسلمًا

فقال: هو والله على ذلك

ثم قال : والله لئن وليته ولم أول أحد سواه لتكونن فتنة ولا يتركونه أبدًا يلي عليهم إلا أن يجعل أحدهم بعده، فيزيد بن عبد الملك أجعله بعده مما يسكنهم ويرضون به.[23]

قلت: رأيك

فكتب سليمان:

"بسم الله الرحمن الرحيم"

"هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إني قد وليتك الخلافة من بعدي ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم".

وختم الكتاب

وأرسل سليمان في طلب صاحب الشرطة فلما حضر

قال: من أهل بيتي فليجتمعوا

فأرسل صاحب الشرطة إليهم أن يجتمعوا فاجتمعوا

ثم قال سليمان لوزيره رجاء بعد اجتماعهم: اذهب بكتابي هذا إليهم فأخبرهم أن هذا كتابي وأمرهم فليبايعوا ما وليت فيه، ففعل رجاء، فلما قال رجاء ذلك لهم قالوا: ندخل فنسلم على أمير المؤمنين.

فقال: نعم

فدخلوا

فقال سليمان: في هذا الكتاب ـ وهو يشير لهم وهم ينظرون إليه في يد الوزير ـ عهدي، فاسمعوا وأطيعوا وبايعوا لمن سميت في هذا الكتاب.

فبايعوا رجلا رجلا.

قال رجاء : فلما تفرقوا جاءني عمر بن عبد العزيز فقال: أخشى أن يكون قد أسند لي شيئا من هذا الأمر، فأنشدك الله وحرمتي ومودتي إلا أعلمتني إن كان حتى أستعفيه الآن قبل أن تأتي حال لا أقدر فيها على ما أقدر عليه الساعة.

قال رجاء: لا والله ما أنا بمخبرك حرفا

فذهب عمر غضبان

قال رجاء: لقيني هشام بن عبد الملك، وكان أخو الخليفة سليمان وكان يتطلع إلى المنصب.

فقال: يا رجاء إن لي بك حرمة ومودة قديمة، وعندي شكر، فأعلمني هذا الأمر، فإن كان لي علمت، وإن كان إلى غيري تكلمت، فليس مثلي قصر به، فأعلمني فملك الله على ألا أذكر من ذلك شيئا أبدا.

فأبي رجاء وقال: والله لا أخبرك حرفا واحدًا مما أسر إلي

فانصرف هشام وهو قد يئس.

ودخل رجاء على سليمان فإذا هو يعاني سكرات الموت.

وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ومات فسجاه رجاء بقطيفة خضراء.

وأرسلت زوجة سليمان إلى رجاء تقول: كيف أصبح؟

فأجاب رجاء: نائم وقد تغطى

قال رجاء: وأجلست على الباب من أثق وأوصيته ألا يبرح حتى آتيه، فلا يدخل على الخليفة أحد، فخرجت وأرسلت إلى صاحب الشرطة فجمع أهل بيت أمير المؤمنين فاجتمعوا في مسجد دانق.

فقلت: بايعوا

فقالوا: بايعنا مرة ونبايع أخرى.

قلت: هذا عهد أمير المؤمنين فبايعوا على ما أمر به ومن سمي في هذا الكتاب المختوم فبايعوا مرة ثانية رجلا رجلا.

فلما بايعوا بعد موت سليمان رأيت أني أحكمت الأمر

قلت : قوموا إلى صاحبكم فقد مات.

قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقرأت عليهم الكتاب فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز نادى هشام بن عبد الملك : لا نبايعه أبدًا

قلت: أضْرب والله عنقك، قم فبايع.

فقام يجر رجليه

وأخذت بعمر بن عبد العزيز فأجلسته على المنبر

وقال عمر بن عبد العزيز "إنا لله وإنا إليه راجعون" لأنه كاره تولي الخلافة[24]

وقال هشام بن عبد الملك "إنا لله وإنا إليه راجعون" لأنه نحي عنها.

وتم ذلك في سنة تسع وتسعين هجرية.

وأراد عمر أن يتأكد من بيعه الناس له فخطب الناس وقال: "أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه ولا طلبت ولا مشورة على المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم ولأمركم من تريدون".

فصاح المسلمون صيحة واحدة "بلى إياك نختار يا أمير المؤمنين"[25].

مواصفات عمر تؤهله للإصلاح الاقتصادي :

حينما ولي عمر بن عبد العزيز إمارة الدولة الإسلامية كانت صفاته تنبئ بأنه سيقود بنجاح الإصلاح العام ومنه الإصلاح المالي، فقد:

- التزم طريق التقوى.
- نهل من منابع العلم.
- أخذ بالشورى.
- أقام العدل.

ونوضح ذلك فيما يلي بنوع من التفصيل:

• تقوى الأمير تصلح الوقائع والأفكار الاقتصادية :

عن تقوى الرجل قيل:

فاجأته أمه ذات يوم وهو طفل في حجرته وحده يبكي وينتحب فألقت نفسها عليه متسائلة عما دهاه.

فكان جوابه "لاشيء يا أماه ـ إنما ذكرت الموت"!![26]

قال أنس بن مالك:ما صليت وراء إمام أشبه بصلاة رسول الله (ص) من هذا الفتى ـ يعني ابن عبد العزيز ـ حين كان على المدينة. فكان يتم الركوع والسجود، ويخفف القيام والقعود.

قال عبد الله بن طاوس رأيت أبي توافق هو وعمر بن عبد العزيز من بعد صلاة العشاء، حتى أصبحت فلما افترقا.

قلت: يا أبت من هذا الرجل؟

قال: هذا عمر بن عبد العزيز وهو من صالحي هذا البيت ـ يعني بني أمية ـ ولما خرج عمر بن عبد العزيز سنة ثمان وثمانين ومعه جماعة من قريش، فلما كان بالتنعيم لقيهم نفر من قريش فأخبروه أن مكة قليلة الماء وأنهم يخافون على الحجيج العطش وذلك أن المطر قليل.

فقال عمر: بالمطلب ها هنا بين، تعالوا ندع الله.

فدعوا الله ودعا معهم فألحوا في الدعاء، فلما كان الليل سكبت السماء ومطرت عرفة ومنى وجمع ونبتت مكة تلك السنة للخصب.[27]

وقد أحاط عمر بن عبد العزيز، حكمه بتقوى الله وعبر عن ذلك تعبيرًا واضحا بالكثير من كلامه وخطبه وفيما يلي نموذج لأحدى خطبه:

"لقد سن رسول الله(ص)وخلفاؤه من بعده سننا الأخذ بها اعتصام بكتاب الله وقوة لدين الله ليس لأحد تبديلها ولا الركون لأمر خالفها، من اهتدى بها فهو المهتد، ومن استنصر بها فهو المنتصر، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا أيها الناس:

إنه ليس بعد نبيكم وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة، ألا وإني لست بقاض وإنما أنا منفذ، ولست بمبتدع إنما أنا متبع ولست بخيركم إنما أنا منكم غير أني أثقلكم حملا"[28].

علم عمر يشع على الحياة الاقتصادية :

علم رؤساء الدول ميزة كبرى تمكنهم من مناقشة وتوجيه الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية واعتماد السياسة المالية للدولة، ويصبح علم الرئيس ضرورة قصوى إذا كان يدير سياسة الدولة مباشرة، كما كان الشأن في عهود الإسلام الأولى، فإشرافه المباشر على سياسة عادلة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا، يتطلب منه سلامة القرارات والإجراءات، وأن يتأكد أن دواليب الحياة تدار إدارة رشيدة، ولا يتحقق ذلك إلا بالعلم والخبرة، وفي المنهج الإسلامي يتسم علم الرئيس، باشتماله على علوم القرآن وأحكام السنة وسائر العلوم المتصلة بها. وهذا ما توفر في "عمر بن عبد العزيز" قبل ولايته خلافة المسلمين.

فقد جمع القرآن وهو صغير، وبان حرصه على العلم من صغره، فيقول الزبير وأن أول ما أستبين عن رشد عمر بن عبد العزيز حرصه على العلم ورغبته في الأدب، فعند تولي أباه ولاية مصر، فأراد أبوه إخراجه معه إلى مصر من الشام.

فقال له: يا أبت أو غير ذلك لعله يكون أنفع لي ولك؟

قال وما هو!

قال: ترحلني إلى المدينة فأقعد إلى فقهائها وأتأدب بآدابها[29].

فأرسله أبوه إلى المدينة فقعد إلى مشايخ قريش وتلقى منهم العلم وأقبل على العربية وآدابها وشعرها فاستوعب حظا وفيرًا.

وتحدث عمر بن عبد العزيز عن علمه فقال: "لقد رأيتني بالمدينة غلاما مع الغلمان ثم تاقت نفسي للعلم فأصبحت منه حاجتي"[30].

والشهادات على وفرة علمه كثيرة منها:

عن ميمون بن مهران: أتينا عمر بن عبد العزيز فظننا أنه يحتاج إلينا فإذا نحن عنده تلاميذه.[31]

وقال سفيان: كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلاميذه.[32]

وعن مجاهد: أتينا عمر فما برحنا حتى تعلمنا منه.[33]

ومما يتصل بعلمه:

أن عمر بن عبد العزيز قضى فترة تدريب على الحكم قبل الخلافة، فلما مات أبوه وكان أمير مصر أخذه عمه عبد الملك بن مروان وكان على رأس الدولة الإسلامية، فلما مات عبد الملك وولي ابنه الوليد، عين عمر بن عبد العزيز واليا على المدينة والطائف من سنة ست وثمانين هجرية إلى سنة ثلاث وتسعين فتمرس على الحكم وتدرب على إدارة شؤونالدولة وحج بالناس وساهم في توسيع مسجد النبي(ص) ووسعه ليشمل قبر النبي (ص)، غير أنه عزل عن المدينة سنة ثلاث وتسعين.[34]

هذه المكانة من العلوم أظهرت ثراءً في مجال الأفكار الاقتصادية الصحيحة والقرآن والسنة، كما ساهمت في بناء وإقامة وقائع اقتصادية أصيلة في الحكم الإسلامي الراشد حيث مكنه علمه من إرجاع الانحرافات إلى نصبها السليمة في الشرع الحنيف بالتعاون مع العلماء

والفقهاء حيث أسس مجلس للشورى يتكون من عشرة من خيرة الفقهاء وهم:

(1) عروة بن الزبير

(2) عبد الله بن عتبة

(3) أبو بكر سليمان بن أبي خيثمة

(4) سليمان بن يسار

(5) القاسم بن محمد

(6) سالم بن عبد الله بن عمر

(7) عبد الله بن عبد الله بن عمر

(8) عبد الله بن عامر بن ربيعة

(9) أبو بكر عبد الرحمن الحارث بن هشام

(10) خارجة بن زيد

وحدد اختصاصهم فقال:

"إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانا على الحق، وما أريد أن أقطع أمرًا إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحدًا يتعدى أو بلغكم عن عاملين لي ظلامه، فأناشدكم بالله على من بلغه ذلك إلا بلّغني، فخرجوا يجزونه خيرًا.[31]

والشورى كانت لازمة لعمر بن عبد العزيز في حكمه في جميع السياسات العامة للدولة، ويمكن القول أنه أول من نظم استطلاع رأي الشعب في مسائل المالية العامة والتجارة كعرض الضرائب وتحديد قائمة العطاء من بيت المال، وتحقيق الموازنة فازدهر الاقتصاد وتدعمت الأفكار الاقتصادية السليمة.

المبحث الثالث

الوقائع والأفكار الاقتصادية عند

عمر بن عبد العزيز

تتضح ملامح الأفكار والوقائع الاقتصادية لعمر بن عبد العزيز مما أعلنه في بعض الخطب والكلمات العامة، التالية:

غداة تولي عمر بن عبد العزيز إمارة الدولة الإسلامية ألقى الخطاب التالي:

"أوصيكم بتقوى الله فإن تقوى الله خلف من كل شيء وليس من تقوى الله خلف، وأكثروا من ذكر الموت فإنه هادم اللذات وأحسنوا الاستعداد له قبل نزوله وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها ولا في كتبها ولا في نبيها وإنما في الدينار والدرهم وأني والله لا أعطي أحدًا باطلا ولا أمنَعَ أحد حقه".

ثم رفع صوته فقال:

"أيها الناس من أطاع الله وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله فإذا أعصيت فلا طاعة لي عليكم"[36].

وبعد تولي الخلافة:

قال عمر بن عبد العزيز لسالم بن عبد الله بن عمر: أكتب لي سيرة عمر حتى أعمل بها.[37]

وعن سياسة العمالة واتصالها بالسياسة المالية قال:

"إن للسلطان أركان لا يثبت إلا بها فالوالي ركن، والقاضي ركن، وصاحب بيت المال ركن، والركن الرابع أنا"[38].

وبتحليل الأقوال السابقة ـ وهي نموذج مختار من خطبه ـ تبين أن الإطار العام للوقائع الاقتصادية وأفكارها سيأخذ اتجاها مميزًا لما كانت عليه في عهد الخلفاء الأمويين السابقين، وهي أقرب لما كانت عليه هذه الوقائع والأفكار في العهد الراشد هذا الاتجاه تحدده الأسس التالية:

1 ـ قرر وجود تجاوزات في تنفيذ السياسة المالية السابقة من أمراء بني أمية يجب إصلاحها ويستدل على ذلك بقوله: "إن هذه الأمة لم تختلف في ربها ولا في كتبها ولا في نبيها وإنما في الدينار والدرهم".

2 ـ أعلن عزمه على تطبيق من الفرائض المالية التي كانت مطبقة في عهد رسول الله(ص)والخلفاء الراشدين من بعده، ويتضح ذلك من قوله "بأنه إن أبقاه الله ليردن النهر المورود الذي تركه رسول الله(ص) إلى مجراه الأول".

ويتضح ذلك أيضا من طلبه سيرة عمر بن الخطاب ليعمل بها، ومن أهم إجراءات سيرة عمر في المال، توليه اختصاص المال العام بجانب شؤون الخلافة.

3 ـ وقد اعتمد عمر بن عبد العزيز إدارة الاقتصاد بالعدل ومن ذلك:

أ ـ "لكم علي ألا أجتبي شيئا من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه".

ب ـ في المال العام قال: "ولكم علي إذا وقع في يدي (المال العام) ألا يخرج مني إلا بحقه".

جـ ـ وعن العطاء قال: "ولكن علي أن أزيد أعطياتكم وإرزاقكم إن شاء الله وأسد ثغوركم".

د ـ وعن منع الظلم ورد المظالم قال:

"ولست أدع أحدًا يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض ووضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق".

هـ ـ وعن إعطاء المسؤولية: عزم على التزام الكفاءة والصلاحية في تعيين ولاة الدولة وعمالها خصوصا من يزاولون أمور المال العام حينما اعتبر أن صاحب بيت المال ركن من أركان السلطان الأربعة.

مما سبق يتضح أن الأفكار والوقائع الاقتصادية قامت على أسس من الإصلاح المالي والاقتصادي والإداري.

سياسة الإصلاح في عهد عمر بن عبد العزيز:

ارتبطت سياسة الإصلاح في عهد عمر بن عبد العزيز بالإصلاح المالي والاقتصادي، حيث ارتبط هذا وذاك بإصلاح كلي من الوقائع والأفكار الاقتصادية.

وقامت السياسة الإصلاحية على تحرير المبادرة وتحرير الاقتصاد من القيود، حيث أذاع أمير المؤمنين تعليمات وأقوال لتحقيق المبادئ التالية:

ـ فتح باب الهجرة للجميع.

- إطلاق حرية التجارة والمعايش.
- حرية العمل والعمال وإلغاء عمل السخرة.
- إحياء المزارع للجميع.
- عدم التدخل في الأسعار (تخضع لحرية العرض والطلب).

ونستعرض المبادئ السابقة بنوع من التفصيل لإبراز أهمية كل منها:

فتح باب الهجرة:

كتب عمر بن عبد العزيز لولاته قائلا: " افتحوا للمسلمين باب الهجرة"[39].

وبذلك أصبح حق الهجرة متاحا لمن يريد، والناس يهاجرون عادة لتحسين أحوالهم الاقتصادية والمعيشية أو لطلب العلم، كما أن الهجرة تؤدي إلى تحقيق استثمار الأراضي الجديدة وإمكانية إعمار المدن الجديدة، وتحقيقا لأمر الله عز وجل في أمر للناس بالسعي والهجرة.

قال سبحانه وتعالى: **[ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة]** (سورة النساء، الآية: 100).

وقال جل وعلا : **[فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه]** (سورة الملك، الآية: 15).

وكانت الهجرة من مكة أيام رسول الله(ص)أحد وسائل نشر الدين الإسلامي وإعلاء رايته.

وقد سجلت الهجرة وعملية الترحال صورة مشرفة في الحياة التجارية والاقتصادية للمسلمين.

حرية التجارة والمعايش أولى من الضرائب والمكوس:

قال عمر بن عبد العزيز: "إن البر والبحر لله جميعا سخرهما لعباده يبتغون فيهما من فضله فكيف نحول بين عباد الله وبين معايشهم" ففتح طريق البحر للتجارة الحرة ومنع الضرائب المتصلة بها وكان يستشهد بقوله تعالى: [**الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله**] (سورة الجاثية، الآية: 12).

فسياسة عمر بن عبدالعزيز، فيما ذهبت إليه قد بنيت على أساس ديني، وهو أن الله سبحانه وتعالى سخر البر والبحر للناس، فأية قيود، ولو كانت تؤدي إلى جباية أموال عامة لبيت المال تحد من هذا التسخير ينبغي إزالتها، وفعلا أطلقت حرية التجارة بهذا المفهوم ولم تتأثر أرصدة بيت المال، فلم يعرف بيت المال سعة منذ العهد الراشد إلا في عهده.

حرية العمل:

حرية العمل هي حق الإنسان أن يتخير من العمل ما يشاء وأن يزاول كما يشاء فلا يجوز للدولة ولا لغيرها أن تسخر العامل للعمل إذا كان لا يريد، وإذا أدى العامل عملا لابد أن ينال عنه الأجر المناسب، ولا يجبر العامل على العمل إلا إذا كان العمل ضرورة لمصلحة عامة ولا يوجد من يحسن هذا العمل إلا هو، ففي هذه الحالة فقط يجبر العامل

على العمل، وقد اعتنق عمر بن عبد العزيز سياسة حرية العمل، وألزم بها العمالة فأرسل لهم التعليمات التالية:

"ليكن لكل عامل أجره فضعوا السخرة عن الناس"[40].

المزارع للجميع:

يقول عمر بن عبد العزيز في هذا الشأن لولاته:

"إنما جعلت المزارع لأرزاق المسلمين كافة... فردوها لما جعلت له"[41].

وبذلك يحرر الأرض الزراعية من أية قيود تحول دون زراعتها وتمنع الناس كافة بنتاجها، دون احتكار الدولة لذلك، أو إستلاء طاقة من الناس على نتاجها وتكوين طبقة من الإقطاعيين يتحكمون في غلاتها، هذا وقد تبين الفيزيوقراطيون في القرون الوسطى بعد عمر بن عبد العزيز هذا المبدأ في فرنسا، أي تبنوا مبدأ حرية الأرض والعمل بها، بالإضافة إلى تبني حرية التجارة وفقا لمبدأ أتركه يعمل أتركه يمر.

عدم التدخل في الأسعار:

حدث أن ارتفعت الأسعار في عهد عمر بن عبد العزيز، فطالبه البعض بتحديد الأسعار فأبى تمسكا بساسة الحرية الاقتصادية.

فعن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه قال:

قلت لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين ما بال الأسعار غالية في زمانك وكانت في زمان من قبلك رخيصة؟

قال عمر بن عبد العزيز: إن الذين كانوا قبلي كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم، فلم يكونوا يجدون بدًا من أن يبيعوا ويكسد ما في أيديكم وأنا لا أكلف أحدًا إلى طاقته، فباع الرجل كيف شاء.

قلت: لو أنك سعرت.

قالك ليس إلينا من ذلك شيء إنما السعر لله.[42]

مما سبق يتضح أيضا أن عمر بن عبد العزيز كان لا يكلف أهل الذمة فوق طاقتهم كما كان يفعل من سبقه من الولاة الذين كانوا يظلمونهم فأدت زيادة العبء عليهم وتعجيل أدائه إلى اضطرارهم لبيع سلعهم بالخسارة، ليسددوا التكاليف الباهضة المفروضة عليهم وإلا تعرضوا للأداء والتعذيب، لذلك كانت الأسعار رخيصة بسبب زيادة العرض من السلع زيادة غير طبيعية، أما في زمان عمر بن عبد العزيز حيث لم يحمل أهل الذمة إلا بما يستحق عليهم بالعدل، فأصبح عرض سلعهم يخضع لآلية السوق في ظل العوامل الطبيعية، واستحقوا عليها الثمن العادل، وإن كان مرتفعا في عهد عمر بالمقارنة بعهد من كانوا قبله، لكن هذا جعل الحياة الاقتصادية تزدهر، إذ أعطي فرصة لعوامل الإنتاج من التفاعل وفق القواعد الاقتصادية الصحيحة الحقيقية توقع التوازن بين أطراف المعادلة الاقتصادية إنتاج ∫ إستهلاك ∫ توزيع.

وهكذا أصبحت الدورة الاقتصادية سليمة في عهد عمر بن عبد العزيز حيث تميز عهده رغم قصر فترته الزمنية بالازدهار وتوفر العيش الرغيد.

ففي عهده تضاءل الفرق المعيشي بين الفقراء والأغنياء وكان من أهم إجراءاته في السياسة الاقتصادية قوله "وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم حتى يستوي الكل"[43].

من الأفكار الاقتصادية لعمر بن عبد العزيز

تأصيل المذهب الاقتصادي:

مما سبق وفي ضوء تعاليم الدين الإسلامي يمكن استنتاج:

1 ـ أن المبدأ الذي طبقه عمر بن عبد العزيز، هو مبدأ الحرية الاقتصادية وعدم التدخل إلا في الحالات التي يشير بها الإسلام.

وقد بين في سياسته: أن الله جل وعلا قد أوجد نظاما طبيعيا تخضع له الظواهر الاقتصادية وهو أفضل من كل النظم التي تتمخض عنها القوانين الوضعية، لأن النظام الإسلامي أقدرها على توفير السعادة والرخاء للأفراد والجماعات في الدنيا وفي الآخرة.

2 ـ الاعتماد على آلية السوق (العرض الطلب) في تحقيق التوازن، فمن تعاليم الإسلام ألا يظلم البائع والمشتري وأن تضبط الموازين والمكاييل، ونبذ الغش والربا والاكتناز والاحتكار من المعاملات الاقتصادية، ولا خوف من أن يضار أصحاب الدخول المحدودة من ارتفاع الأسعار، لأن نظام الزكاة الذي تفرد به المنهج الإسلامي يحفظ لهم حقوق في أموال الأغنياء، ولا تقتصر هذه الحقوق على الزكاة

المفروضة وقد حفظت حقوق هؤلاء في عهد عمر بن عبد العزيز بما يجعل المنهج الإسلامي نموذجا في القضاء على الفقر وتحقيق التوازن والعيش الكريم.

3 ـ تدخل الدولة لا يكون إلا فيما أشارت إليه الأحكام الإسلامية، كأن يكون ارتفاع الأسعار نتيجة غش أو احتكار، أو تجارة في محرم، أو بَخْسَ كيل أو تطفيف ميزان، وغير ذلك من المخالفات.

4ـ إصلاح السياسة المالية: ويشمل ذلك إصلاح:

أـ إيرادات الزكاة ونفقاتها المخصصة (موازنة الزكاة).

ب ـ إيرادات الخمس من الغنائم ونفقاتها المخصصة (موازنة الخمس).

جـ ـ إيرادات الجزية والخراج والعشور (موازنة كل منها).

د ـ تنظيم العطاء.

هـ ـ إزالة المظالم المالية في جميع صورها.

المبحث الرابع

انتكاس السياسة الاقتصادية بعد وفاة

عمر بن عبد العزيز

كانت خلافة عمر بن عبد العزيز سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، فقد توفي لخمس ليال باقين من رجب سنه إحدى ومائة هجرية وهو ابن تسع وثلاثين وخمسة أشهر.[44]

وقيل أن سبب وفاته السل، وقيل أن السبب هو شدة خوفه من الله، وقيل أنه مات مسموما بسم دسه مولى له نظير ألف دينار من معارضي سياسته من أمراء بني أمية، ولما اكتشف عمر بن عبد العزيز ذلك أمر بوضع الألف دينار ببيت المال وترك الجاني، ومات الخليفة عمر بن عبد العزيز بدار سمعان ودفن بها.[45]

أسباب انتكاسة سياسة عمر بن عبد العزيز الاقتصادية:

رأينا أن عمر بن عبد العزيز قد طبق سياسة اقتصادية استقاها من سياسة جده عمر بن الخطاب، وظلت هذه السياسة منفذة في حياته، ولكنه لما مات انتكست للأسباب التالية:

1 ـ كانت سياسة عمر بن عبد العزيز قد جردت أمراء بني أمية من مصالحهم المادية إلا ما هو حق شرعي لهم، لذلك كان من مصلحتهم نبذ هذه السياسة بعد وفاته، فأعادوا التمييز في العطاء من بيت المال وأباحوا لأنفسهم الاعتراف من بيت المال ما شاءوا، كما أنهم كانوا

رافضين لسياسة تولي الموالى للوظائف العامة ويعتبرون ذلك نبلا من تعاليهم على الموالي.

2 ـ عودة الصراع بين الأحزاب والحكام: سلب أمراء بني أمية بعد عمر بن عبد العزيز المعارضين حقوقهم المالية التي كان قد أعطاها إليهم عمر بن عبد العزيز، وكانت المعارضة للحكم الأموي تتمثل في الأحزاب والطوائف التالية: (46)

ـ حزب الشيعة: الذي يرى أن علي بن أبي طالب وأولاده من بعده أحق الناس بالخلافة.

ـ حزب الخوارج: ويتكون أعضاؤه من الذين خرجوا من جيش علي وأنصاره وأعلنوا عصيانهم له وكانوا يستحلون دم الأمويين والعلويين معا ويرونهم خارجين على الدين، ويرون أن الخلافة حق لكل مسلم لا فرق بين قريش وغير قريش.

ـ حزب الزبيريين: وينادى أعضاؤه بالخلافة لعبد الله بن الزبير.

ـ طائفة القدرية: كانوا ينكرون قدر الله تعالى ويغالون في إثبات قدرة الإنسان.

وقد أدى سلب الحقوق المالية للمعارضة إلى اتحاد العلاقة بين أمراء بني أمية والأحزاب شكل الصراع الذي مولته الدولة الأموية، وبذلك عادت للمال العام إحدى نكساته التي كانت قبل عمر بن عبد العزيز وهي انفاق جزء من المال على قتال المسلمين بعضهم بعضا.

3 ـ قصر مدة خلافة عمر: كانت خلافة عمر بن عبد العزيز لا تتجاوز السنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، وهي مدة لا تكفي لتأصيل السياسة المالية الإصلاحية، واستقرار مبادئها واعتياد المملولين عليها، والقرآن

الكريم يوضح أهمية المدة الزمنية في ترسيخ السياسة الاقتصادية، وذلك في وصفه للسياسة الاقتصادية التي اقترحها يوسف الصديق عليه السلام، فقد استغرقت عملية تنفيذها خمسة عشر سنة كما تبين من الآيات التالية: **[قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون، ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون، ثم يأتي من بعد ذلك عما فيه يغاث الناس وفيه يعصـــرون]** (سورة يوسف 47 ـ 49).

4 ـ مساندة بعض أصحاب المنافع لأمراء بني أمية في إنهاء سياسة عمر بن عبد العزيز:

لم يكن الأمراء وحاشيتهم وحدهم الرافضين لسياسة عمر بن عبد العزيز بل كان بجانبهم بعض المنتفعين من بيت المال سابقا، فكثير من هؤلاء جاءوا إلى عمر بن عبد العزيز يطالبونه بمزايا قررها لهم الخليفة الأموي السابق فيرفضها، ومن هؤلاء أيضا الشعراء الذين اعتادوا الحصول على منح وعطايا من بيت المال من أمراء بني أمية، وانضم لهؤلاء الولاة والعمال الظلمة الذين فصلهم عمر في بداية ولايته، خاصة المتعسفين فهم في الجباية وتعذيبهم للأهالي والسير بسيرة الحجاج بن يوسف الثقفي في الولاية.

5 ـ عدم تعيين عمر بن عبد العزيز من يخلفه بعد موته، جعل يزيد بن عبد الملك يقرأن الخلافة سلطة مطلعة عن طريق تطبيق مبدأ الوراثة المباشرة، بمعنى أن يخلف الابن أباه، ثم أن يتولى الخلافة فرد من أفراد الأسرة، هذا سارع في القضاء على أفكار عمر خاصة في المجال الاقتصادي والمالي.

وأغلب الظن لو ترك الخيار لعمر بن عبد العزيز في أمر الخلافة بعده لطبق إحدى الطرق الثلاثة:

ـ لصنع كما صنع رسول الله(ص)، فقد قبض ولم يستخلف أحدا فارتضى الناس أبا بكر الصديق.

ـ أو لصنع كما صنع أبو بكر فاختار عمر بن الخطاب وهو الذي قال فيه عثمان بن عفان "لن يأتي الزمان بمثل عمر".

ـ أول لصنع كما صنع عمر بن الخطاب فجعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده.

وتطبيق طريقة من الطرق الثلاث كان سيؤدي لاختيار خليفة يتسم بالصلاحية.

إلا أن الأمر بقي كما هو فآلت الخلافة من بعد عمر إلى ما كانت عليه قبل توليه الخلافة، وتولى إمارة الدولة الإسلامية من بعد عمر بن عبد العزيز كل من:

1) يزيد الثاني 101 ـ 105 هجرية.
2) هشام بن عبد الملك 105 ـ 125 هجرية.
3) الوليد الثاني 125 ـ 126 هجرية.
4) يزيد الثالث 126 هجرية.
5) إبراهيم 126 ـ 128 هجرية.
6) مروان بن محمد 128 ـ 132 هجرية.

ثم انتقل الحكم إلى العباسيين.